﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التَّوبة: 112]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بـيـانُ صِـفـاتِ المؤمنين الّذين اشـتـرَى الـلـه منهم أنفُسَهم وأموالَهم

لَمَّا ذكر الله تعالى في الآية السَّابقة أنَّه ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾، بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المؤمنين هُمُ المَوْصُوفون بهذه الصِّفاتِ الجميلةِ والخِلالِ الجليلةِ، فقال تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾: جمعُ تائبٍ، يقال لباذلِ التّوبةِ ولقابلِ التّوبةِ، فالعبدُ تائبٌ إلى الله واللّهُ تائبٌ على عبده، والتّوّابُ: العبدُ كثيرُ التّوبةِ، وذلك لتَرْكِه كلَّ وقتٍ بعضَ الذّنوبِ على التَّرتيبِ حتى يصيرَ تاركًا لجميعها، وقد يُقالُ ذلك لله تعالى لكثرةِ قَبولِه توبةَ العِبادِ حالاً بعدَ حالٍ، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: 71] أي: التّوبةُ التّامّةُ، وهو الجمعُ بين ترْكِ القبيحِ وتَحرِّي الجميلِ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: 37][2].

2) ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾: جمعُ عابدٍ، ومادّتُه مِنْ (عبد)، يُقال: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، أَي: مَسْلُوكٌ مُذَلَّلٌ، والعابِدُ: المُوحِّدُ[3]، "وعبادَةُ الله تَعَالَى: الذِّلُّ لَهُ بالانقياد لمَا أَمَرَ، والانتهاءِ عَمَّا نهى[4]، وإلى ذلك يُشيرُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/219، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/152.
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (عبد).
(4) ابن الجَوزيِّ، نزهة الأعين، ص: 431.

معنى قولِه في الآية، (العَابِدون) هم الّذين ذَلُّوا لِلّه وأطاعُوه، محبّةً له، واجتَهَدُوا في عبادَتِه وَحْدَه[1]، وعلى ذلك تكونُ العُبوديّةُ تَعبيرًا عنِ المَملوكيَّةِ للّه، بالإذعانِ والامتثالِ لكلِّ ما أمرَ ونَهى، في أمرِ دُنيا أو دِينٍ[2].

3) ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: أي: الصَّائِمُونَ، وأصلُ السَّائِحِ: الذَّاهِبُ في الأرضِ[3]، مِن: ساحَ الماءُ يسيحُ: إذا جرَى وانبسطَ من غير نهايةٍ ولا حَدٍّ[4]، فيُقالُ: ماءٌ سَائِحٌ وسَيْحٌ: إذا جرَى وذهبَ، والسَّائحُ في الأرض مُمْتَنِعٌ مِنَ الشَّهوات، فشُبِّه الصَّائمُ به لإمساكِه في صومِه عنِ المَطعمِ والمشرَبِ والنِّكاحِ[5]، فقيل للصَّائِم: سائحٌ، لأَنَّ الّذي يَسِيحُ مُتعبِّدًا يَسيحُ وَلَا زَادَ مَعَه، إِنّما يَطْعَمُ إذا وَجَدَ الزَّادَ، والصّائمُ لَا يَطْعَمُ أَيضًا[6].

4) ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: مِن عَرفَه يَعْرِفُه مَعْرِفةً وعِرْفانًا، فهو عارِفٌ وعَرِيفٌ: عَلِمَهُ[7]، وهو اسمٌ لكلّ فعلٍ يُعرفُ بالعقل أوِ الشَّرْعِ حُسنُه، وهو كُلُّ ما أمَرَ اللّهُ ورسولُه به، منَ الإيمانِ باللّهِ وطاعتِه وطاعةِ رَسولِه[8].

5) ﴿ٱلْمُنكَرِ﴾: المُنكرُ منَ الأَمر: خلافُ المَعْرُوف، وَالجمعُ: مَنَاكِيرُ[9]، وأصلُ المنكر يدلُّ على خلافِ المعرفة الّتي يَسْكُنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكرَه: لم يقبَلْه قلبُه ولم يعترفْ به لسانُه، وسببُ الإنكارِ باللِّسان الإنكارُ بالقلب، لكنْ ربَّما يُنْكِرُ اللِّسانُ الشَيءَ وصورتُه في القَلْب حاضرةٌ، ويكونُ في ذلك كاذبًا، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النّحل: 83]، والمُنكرُ: كلُّ فعْلٍ تَحْكُمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبحِه، أَو تتوقَّفُ في استقباحِه العقولُ فتحكمُ الشَّريعةُ بقُبْحِه[10]، وإلى ذلك قصدَ بقوله: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/9، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/88.
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبد).
(3) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 193، وابن جرير، جامع البيان: 12/10، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 147.
(4) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفَّاظ: (سيح).
(5) ابن سيده المرسي، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (سيح).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (سيح).
(7) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/57.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 12/15، 16، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472.
(9) ابن سيده، المحكم: 6/804.
(10) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/120.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، والمعنى هُنا: كُلُّ ما نهى اللّهُ ورسولُه عنه، مثلِ الشِّركِ باللّهِ ومَعصيَتِه ومَعصيةِ رَسولِه[1].

6) ﴿لِحُدُودِ﴾: جمعُ حدٍّ، وحَدُّ الشَّيْءِ: مُنْتَهَاهُ وَمُنْقَطَعُهُ، وأصلُ الحدِّ المنعُ، والحَدُّ: الحاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَفُلَانٌ مَحْدُودٌ، إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا، [2]، والمُرادُ بِحُدُودِ اللّه: مُقَدَّرَاتُهُ بِمَقَادِيرَ مَخْصُوصَةٍ وَصِفاتٍ مَخْصُوصَةٍ[3]، وسُمِّيتِ الحُدودَ، لأنَّها تَحُدُّ، أي: تمنَعُ، وحُدودُ اللّه: أوامرُه ونواهِيه[4]، ومعنى الحُدودِ: ما مَنَعَ اللّه ﷻ من مُخالفتِها، وكلُّ مَن منعَ شيئًا فهو حدَّادٌ، وقولهم: أَحَدَّتِ المرأةُ على زوجِها، معناه: قطعَتِ الزّينَةَ، وامتنعتْ منها، والحديدُ إنَّما سُمّيَ حَديدًا، لأنَّه يُمْتَنَعُ به منَ الأعداءِ، وحَدُّ الدَّار: هُوَ مَا يمنعُ غيرَها أن تدخل فيها"[5]، والحُدودُ: الحواجزُ بين الإباحةِ والحَظْرِ"[6]، ومعنى حدودِ اللّه: أوامرُهُ ونواهِيهِ الّتي مَنَعَ المؤمنين من مُخالفَتِها[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـانُ صـفـاتِ المؤمنين الّذين لهمُ البُشرَى في الدُّنيَا والآخرة

في هذه الآيةِ وصَفَ اللّه المؤمنين الّذين اشترَى منهم أنفسَهم وأموالَهم بأنّهمُ الرَّاجعون ممَّا كَرِهَهُ اللّه وسَخِطَهُ إلى ما يُحبُّه ويرضاهُ، الّذين أخلصُوا العبادةَ للّه وحدَه وجدُّوا في طاعتِه، الحامِدون الّذين يَحمدُون اللّه على كلِّ ما امتَحَنهمْ به من خيرٍ أو شرٍّ، الصَّائمُون، الرَّاكعُون في صلاتِهم، السَّاجدونَ فيها، الذين يُؤَدُّونها كاملةً في خشوعٍ، ويأمرون بكلِّ خيرٍ يوافقُ ما جاءَ به الشَّرعُ، ويَنهَوْن عن كلِّ شَرٍّ يأْبَاهُ الدِّينُ، ويلتزمُون بشريعةِ اللّه، وأَخْبِر –

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/15، 16، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حدَّ).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حدد).
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/257.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/259.
(7) القُرْطبيُّ، تفسير القُرطبيّ: 2/337.

أيُّها الرَّسول - المؤمنين المتَّصِفين بهذه الصِّفات بما يَسُرُّهمْ في الدُّنيَا والآخرة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ موقع الآية ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾:

أهـلُ الإيـمـانِ تـجـارتُـهـم مـعَ الله رابـحـةٌ مع تَـزايُـدِ صِفاتِهم تزدادُ رِبْحًا

اختلفَ أهلُ التَّأويلِ في نُكتةِ فَصْلِ هذه الآيةِ عن سَابِقتِها، فقد ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ هذه الآيةَ يَجمعُها معَ الآيةِ السّابقةِ كمالُ الاتّصالِ بينهما، لأنّها نعتٌ للمؤمنين في قولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التّوبة: 111] واستدلّوا لذلك بقراءةٍ شاذّةٍ (التّائبين)، ويكونُ المعنَى على هذا: (إنّ اللّه اشترَى منَ المؤمنين التّائبين العابدين أنفسَهم وأموَالَهم) لكنّهُ قُطعَ لأجْلِ المَدْحِ فجُعلَ مرفوعًا على أنّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وجوبًا، وهذا الوجهُ يحصلُ به كمالُ الارتباطِ بين الآيتَيْن، وذلك بجَعْلِ هذه الصّفاتِ المذكورةِ في الآية شرطًا في المجاهَدَةِ، وعلى هذا فلا يَدخلُ في المبايعةِ المذكورةِ في الآيةِ السّابقةِ إلّا المؤمنُونَ الّذين هُمْ على هذه الأوصافِ، وبناءً على هذا يكونُ إعرابُ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هُمُ التّائبونَ، وهذا من بابِ قَطْعِ النُّعوتِ، وذلك أنَّ هذه الأوْصَافَ عند هؤلاء القائلين مِن صفاتِ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التّوبة: 111].

وذهب البعضُ إلى أنّها لم تُعطفْ على سابقتِها لكمالِ الانقطاعِ بينهما، بمعنى أنَّ الآيةَ السّابقةَ مستقلّةٌ بنفسِها فلا يُشترطُ فيها شيءٌ سِوى الإيمانِ باللّه تعالى، ويَندرجُ فيها كلُّ مؤمنٍ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللّه هيَ العُليا، وإنْ لم تكُنْ فيه هذه الصّفاتُ، لأنّ الشّهادةَ مَاحِيةٌ لكُلِّ ذنْبٍ، حتى إنّه رُوِي أنّه تعالى يحملُ عنِ الشّهيدِ مظالمَ العباد ويُجازيهم عنه[2].

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 280، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/88.

وبناءً على هذا يكونُ إعرابُ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ فيه أوجُهٌ عديدةٌ منها أنها مُبتدأٌ وخبرُه (العابدون)، وما بعده أوصافٌ أو أخبارٌ متعدّدةٌ عند مَنْ يرَى ذلك، ومنها أنَّ الخبرَ للمبتدأ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ قولُه: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ﴾، ومنها أنَّ خبرَها محذوفٌ تقديرهُ: التّائبونَ الموصوفُونَ بهذه الأوصافِ من أهلِ الجنّة[1]، والرّأيُ الأوّلُ هو الأقربُ للسّياقِ والمعنَى.

دلالةُ التَّعبيرِ عن أوصَافِ المؤمنين بأسماءِ الفاعلِين:

الثُّبوتُ والاستمرارُ على هذه الصِّفاتِ طابعٌ مميّزٌ لهم

وجِيءَ في التَّعبيرِ عن هذه الأوصَافِ بصِيغةِ أسماءِ الفاعلِين، لأنَّ اسمَ الفاعلِ يدلُّ على تمكُّنِ الفعلِ من صاحبِه حتّى باتَ اسمًا له، للإشارةِ إلى أنّها صفاتٌ ثابتةٌ من صِفاتِهم، وكأنَّ التّوبةَ والعبادةَ والحمْدَ والرّكوعَ والسّجودَ طابعٌ مميِّزٌ لهم بين النَّاسِ[2].

صِفاتُ المؤمنِين بينَ الوصْفِيّةِ والخَبَرِيّةِ:

العِنايةُ والاهتمامُ بصِفاتِ المؤمنِين

أوصَافُ المؤمنِين السّابقةُ كان الأصلُ أن تكون مجرورةً، لأنّها كانت وصفًا للمؤمنِين في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التَّوبة: 111]، ولكنّها قُطعتْ عنِ الوصْفِيَّةِ وجُعلتْ أخبارًا لمُبتدأ محذوفٍ هو ضميرُ الجمعِ اهتمامًا بهذه النُّعوتِ اهتمامًا أخرجَها عنِ الوصْفيَّةِ إلى الخَبريَّةِ، ويُسمّى هذا الاستعمالُ نعتًا مقطوعًا، وما هو بنعْتٍ اصطلاحيٍّ، ولكنَّه نعْتٌ في المعنى[3]، فهذه الأوصافُ هي من صِفاتِ المؤمنين الّذين ذَكرَ اللّه أنَّه اشترى منهم أنفُسَهم وأموالَهم، ومعنى الآيةِ، على ما تَقتضِيه أقوالُ العلماء: أنَّها أوصافُ الكَمَلَةِ منَ المؤمنين، ذَكرَها سبحانه، لِيَستبقَ إليها أهلُ التَّوحيدِ، حتى يكونُوا في أعلَى رُتبةٍ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/103، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/129.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/411.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(4) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/218.

دلالة (أل) في هذه الصفات ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ وما بعدها:

الدّعوةُ إلى التأسّي بالأنبياء والتّخلّقِ بأخلاقِهم

(أل) الدّاخلةُ على هذه الأخبارِ أوِ الصّفاتِ هي الجنسيّةُ الاستغراقيّةُ والّتي تفيدُ استغراقَ جميعِ أفرادِ الجنسِ الدّاخلين في حُكمها، وتفيدُ أيضًا في دخولها على الخبر - كما هو مقرّرٌ في علمِ المعاني - القصرَ الحقيقيَّ أوِ الإضافيَّ بحسب المعاني المرادةِ، وتفيدُ أيضًا تحقيقَ الثّناءِ على أصحابها، والتّعريضَ من خلال دعوةِ غيرهم للتأسّي بهذه الصّفاتِ وتتبّعِ حالِ أصحابِها.

نكتةُ التّعبيرِ عن هذه الصّفاتِ بضميرِ الجمْعِ:

الإشارةُ إلى تعاضُدِ المجتمعِ في إبرازِ صُورِ العبادةِ والثّباتِ علَيْها

جَمَعَ النّظمُ الكريمُ الكُلَّ بجمعِ المذكّرِ السّالمِ المقتضِي للتّعاضدِ والتّناصرِ المُوجِبِ لدوامِ العبادةِ والنُّصرةِ[1].

وفيه إشارةٌ إلى حرْصِ الإسلامِ على توسيعِ المساحةِ الإيمانيّةِ وتعدُّدِ طبقاتِها من خلالِ تعدُّدِ صفاتِها، ولا فرقَ هنا بين الذّكرِ والأنثى، لأنَّ التّعبيرَ هنا جاء من بابِ التّغليبِ.

سِرُّ تَخصيصِ هذه الصّفاتِ بالذِّكْرِ دونَ غيرِها:

الصُّورةُ الكامِلَةُ لمَا يجبُ أن يكونَ عليه المؤمنُ

خُصِّصتْ هذه الصّفاتُ بالذّكْر لبيانِ أنّ هذه الصّفاتِ من شُعبِ الإيمان، ولأنّها تُمثّلُ الصُّورةَ الكاملةَ الّتي ينبغي أن يكونَ عليها المؤمنُ ومجتمَعُه الّذي يعيشُ فيه حتى يحفظَ كلٌّ منهما الآخرَ.

سرُّ تَرتيبِ هذه الصِّفاتِ:

البدْءُ بما يَخُصُّ الإنسَانَ في نفسِه ثُمَّ إلى ما يتعدَّاهُ إلى غيرِه

ابتدأَ النَّظمُ الكريمُ ترتيبَ هذه الصِّفاتِ بالتَّوبةِ الّتي هي أساسُ العملِ الصَّالحِ، ثُمَّ ابتدأَ المؤسَّسُ بمطلقِ العبادةِ الشَّاملةِ لجميعِ أنواعِ الدِّين منَ العلمِ وغيرِه فقال: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾[2]، مبتدئًا أوّلًا بما يخصُّ الإنسانَ مُرتَّبةً على ما سعى، ثُمَّ بما يَتعدَّى من هذه الأوصافِ من الإنسانِ لغيرِه وهو الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكرِ، ثُمَّ بما شَمِلَ ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/390.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/26.

يَخصُّه في نفسِه وما يتعدَّى إلى غيرِه وهو الحفظُ لحدودِ الله، فقدَّم الأوَّلَ، لأنَّ المُكَمِّلَ لا يكون مُكَمِّلًا حتَّى يكون كاملًا في نفسِه، فجاء هذا التّرتيبُ في غايةٍ منَ الحُسنِ[1].

سِرُّ ذكْرِ: ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ بعد: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾:

التَّخلِيةُ بعدَ التَّخْلِيةِ

فذكَرَ اللّهُ تعالى في هذه الآية خِصالَ التَّائِبِ، فقال: ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ فلا بُدَّ للتَّائبِ منَ العبادة والاشتغالِ بالعملِ للآخرةِ، وإلَّا فالنَّفسُ همَّامةٌ متحرّكةٌ، إن لم تَشْغَلْهَا بالحقِّ، شغلَتْكَ بالباطل، فلا بُدَّ للتَّائبِ من أن يُبَدِّلَ تلك الأوقاتِ الّتي مَرَّت له في المعاصِي بأوقاتِ الطَّاعاتِ، وأن يَتَدَاركَ ما فرَّط فيها، وأن يُبَدِّلَ تلك الخُطواتِ بخطواتٍ إلى الخيرِ، ويَحفظَ لحظاتِه وخطواتِه، ولفظاتِه وخطراتِه[2]، ولأنَّ لفظَ ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ يعمُّ القيامَ بعبادةِ اللّه ﷻ والتزامِ شرْعِه ومُلازمةِ ذلك والمُثابرةِ عليه والدّوامِ.

وفيه بيانُ رحمةِ اللّه بعبدِه إذا أتَى بأقَلِّ عبادةٍ يُؤدِّيها المرءُ المسلمُ يقعُ عليه وصْفُ (عابدٍ)، وتزدادُ درجتُه بقدْرِ الزّيادةِ في عبادتِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾:

الحمْدُ أعمُّ منَ الشُّكرِ

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ دون (الشاكرون)، لأنَّ الحمْدَ أعمُّ منَ الشُّكرِ في جهةٍ من جهاتِ الفُروق بينَهما، فالشُّكرُ يكونُ على النّعمِ الخاصّةِ بالشَّاكرِ، بخلافِ الحمْدِ فهو على كلِّ حالٍ في السَّرّاءِ والضّرّاءِ، ولذلك قالُوا: الحامدُون معناهُ: الذّاكرَون للّه بأوصَافِه الحُسنَى في كلِّ حالٍ وعلى كلِّ حالٍ، وفيه تأسٍّ برسول الله ﷺ إذا أتاهُ الأمرُ يسُرُّه، قال: الحمدُ للّه الّذي بنعمتِه تتمُّ الصّالحاتُ، وإذا أتاهُ الأمرُ يكرَهُه، قال: الحمدُ للّه على كلِّ حالٍ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/510.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية: 9/185.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/31.

سِرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾:

السّياحةُ لفظٌ يدلُّ على معانٍ كثيرةٍ، وكلُّها يُحتملُ دخولُها في معنَى الآيةِ

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ لأنّه يحملُ مَعانيَ عديدةً، فمنهم مَنْ قال: إنّه مشتقٌّ منَ السّياحةِ وهي السّيرُ في الأرض، والمرادُ به سيرٌ خاصٌّ محمودٌ شرعًا، وهو السّفرُ الّذي فيه قُربةٌ للّه وامتثالٌ لأمرِه، مثلَ سفرِ الهجرةِ من دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلام، أوِ السّفرِ للحجِّ أو للجهادِ، وحمْلُه هنا على السّفرِ للجهادِ أنْسبُ للمَقامِ وأشملُ للمؤمنين المأمورين بالجهادِ، ومنهم مَنْ قال: إنَّ المرادَ به الضّربُ في الأرضِ خاصّةً والّذي عبَّرَ عنه بالمُتنقلين لطلبِ العلْمِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ به: السّيْرَ سياحةً من أجلِ اكتشافِ الآثارِ والوقوفِ على أخبارِ الأممِ البائدةِ ليكونَ ذلك مثالَ عِظةٍ واعتبارٍ[1]، وقال بعضُ العلماء: إنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: الصّائمُون، واستدلُّوا على ذلك بما أسْنَدَه الطّبريُّ عن عائشةَ ﵂: «سياحةُ هذه الأمّةِ الصّيامُ»[2]، ولما رُوِيَ عنِ ابنِ عبّاس ﵄: "إنّ كلّ ما ذكر اللّه في القرآن من السِّياحة، فهو الصِّيام".

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾:

شُبِّهَ الصّومُ بالسّياحةِ لمنْعِه النّفسَ عنِ الشّهواتِ

استُعيرتِ السِّياحةُ للصَّوم بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، لأنَّ الصّومَ يعوقُ عنِ الشَّهواتِ، والسَّائحُ في الأرضِ ممتنعٌ منَ الشَّهواتِ فشُبِّهَ الصّائمُ به لإمْساكِه في صومِه عنِ المطعمِ والمشربِ والنِّكاحِ[3]، أو لأنّه رياضةٌ نفسانيّةٌ يُتوصّلُ بها إلى الاطّلاعِ على خفايَا المُلكِ والملكوتِ، كما أنَّ السّياحةَ يُتوصّلُ بها إلى الاطِّلاعِ على الأماكنِ والبلادِ النّائيّةِ التي خَفِيتْ على السّيّاحين، ووجْهُ الشّبهِ فيهما الاطِّلاعُ على الأمورِ الخفيّةِ في كلٍّ منهما[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/41.
(2) الطبري، جامع البيان: 14/506.
(3) السّيروان، المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن، ص: 213.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/348.

ولمَّا كانَ هذا اللّفْظُ يَحملُ هذه المعانيَ العديدةَ منَ السّياحةِ في الجهادِ والسّياحةِ في طلبِ العلم والسّياحةِ في نشْرِ الإسلامِ والتّفكّرِ في ملكوتِ الله، لكلِّ ذلك كانَ التّعبيرُ به هو الأَوْلَى في هذا المقامِ.

سِرُّ التّعبيرِ عنِ الصّلاةِ ببعضِ أجزائِها:

الـــرُّكـــوعُ والسُّجودُ أجلُّ مظاهرِ التّواضُعِ والعُبوديّةِ

جعل النّظمُ الكريمُ ذِكْرَ الرُّكوعِ والسُّجود، كنايةً أو مجازًا مُرسلًا عنِ الصّلاة، لأنَّ سائرَ أشكالِ المُصلّي موافقٌ للعادة، وهو قيامُه وقعودُه، والّذي يَخْرُجُ عنِ العادة في ذلك هو الرُّكوعُ والسُّجودُ، وبه يتبيَّنُ الفضلُ بين المُصلّي وغيرِه، ويمكنُ أن يُقالَ: القيامُ أوّلُ مراتبِ التّواضُعِ لله تعالى، والرُّكوعُ وسطُها، والسُّجودُ غايتُها، فخصَّ الرُّكوعَ والسُّجودَ بالذِّكر، لدلالتِهما على غاية التّواضُعِ والعبوديّة، تنبيهًا على أنَّ المقصودَ منَ الصّلاة نهايةُ الخضوعِ والتّعظيم[1]، والنّهيُ عنِ الفحشاء والمنكر، وللإشارةِ إلى أنَّ الّذين يُكثرون منَ النّوافل هم أدْخلُ في هذا الوصْفِ وأعرقُ في الاتّصافِ به.

سِرُّ اختيارِ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾:

الدّلالة على كَثرةِ الرّكوعِ وتجدُّدِهِ والمبالغةِ فيه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ دونَ المبالغةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحجّ: 26]، فجاء التّعبيرُ بـ(الرُّكّع) على صيغة (فُعَّل) وهي جمعُ تكسير وصيغتُه تدلُّ على المبالغةِ في الرّكوعِ والمداومةِ عليه، وفيه إشارةٌ إلى كثرةِ القيامِ بالرّكوعِ، بخلافِ لفظِ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ و﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهو جمعُ مذكّرٍ سالمٌ لمجرَّدِ الوصْفِ دونَ مبالغةٍ في الصّفةِ، وهو يدلُّ على التّجدُّدِ والحدُوثِ للدّلالةِ على الحركةِ الظّاهرةِ في أداءِ الصّلاة، وهو المعنى الّذي أرادَه السّياقُ هنا، أمّا لفظُ (السُّجَّدُ) فقد وردَ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/154، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510.

القُرآن الكريم في مواضعَ عديدةٍ كلُّها تدلُّ على الحركةِ الظّاهرةِ، مثلَ قولِه تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: 29]، وقولِه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ [يوسف: 100]، وقولِه: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: 58] فالملاحَظُ أنّها كلَّها في موضعِ الحركةِ الظّاهرةِ ورُؤيَا العينِ[1].

بلاغةُ العُدولِ عنِ العطْفِ بين الصّفاتِ:

وحدةُ هذه الصّفاتِ في تحقُّقِها والالتزامِ بهَا

تظهرُ بلاغةُ الجمْعِ بين هذه الصّفاتِ دونَ أن يكونَ بينَها حرفُ عطْفٍ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ إشارةً إلى أنّها جميعًا بمنزلةِ الصّفةِ الواحدةِ، وأنّه لا تتحقّقُ أيُّ صفةٍ فيهما إلّا إذَا تحقّقتْ جميعًا، لأنَّ تحقيقَ صفةٍ منها يكونُ داعيًا لتحقيقِ كلِّ الصّفاتِ، فالتّائبُ مثلاً إذا صحّتْ توبتُه وحقّقَ مَضمونَها كان عابدًا حامدًا سائحًا راكعًا ساجدًا آمرًا بالمعروفِ ناهيًا عنِ المنكرِ حافظًا لحدودِ اللّه، وهكذا كلُّ صفةٍ بعدَها إذا تحلَّى المؤمنُ بواحدةٍ منها كانتِ الصّفاتُ الأُخرَى من حلْيَتِه[2]، كما أنّ الأصلَ في تعدّدِ الصّفاتِ لموصوفٍ واحدٍ أن لا نعطفَ بينها إلّا لغرضٍ بلاغيٍّ يقتضيهِ السّياقُ.

نكتة العطْفِ في: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

الإيذانُ بأنَّهمَا فريضةٌ واحدةٌ لتلازُمِهما في الغالبِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث ذكَرَ حَرْفَ العطْفِ هنا دون ما قَبْلَه، لِتَبايُنِ ما بينَ الوَصْفَيْنِ، فالأمرُ مُباينٌ للنَّهيِ، إذِ الأمرُ طلَبُ فِعْلٍ، والنَّهيُ تركُ فعلٍ، والصِّفاتُ إذا تكرَّرتْ وكانت للمدْحِ أوِ الذَّمِّ أوِ التَّرحُّمِ جاز فيها الاتّباعُ للمنعوتِ والقطعُ في كلِّها أو بعضِها، وإذا تباين ما بين الوصْفَيْن جازَ العطْفُ[3].

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 480.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 4/902.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/511.

وقيل: إنّ عطْفَ النّهي عنِ المنكر على الأمرِ بالمعروف، للإيذانِ بأنّهما فريضةٌ واحدةٌ لتلازُمِهما في الغالب، والمعدودُ مجموعُهُما، كأنّه قيل: الجامعُون بين الوصْفَيْن[1].

والظَّاهرُ أنَّ العطْفَ في هذا الوصْفِ بخُصوصِه إنَّما كان من جهةِ أنَّ الأمرَ والنَّهيَ من حيثُ هُما أمرٌ ونهيٌ مُتقابِلان بخلافِ بَقيّةِ الصِّفاتِ أو لأنَّ الآمرَ بالمعروفِ ناهٍ عنِ المنكرِ وهو تركُ المعروف، والنَّاهي عنِ المنكرِ آمرٌ بالمعروف، لأنّهما وجهانِ لأمرٍ واحدٍ، فأُشيرَ إلى الاعتدادِ بكلٍّ منَ الوصْفَيْن وأنَّه لا يُكتَفى فيه بما يحصلُ في ضمْنِ الآخرِ[2].

وممّا يُذكرُ في سرِّ العطْفِ أنَّ بينَهما تلازُمًا في الذِّهنِ والخارجِ، لأنَّ الأوامرَ تتضمّنُ النَّواهيَ، ومنافاةً بحسبِ الظَّاهرِ، لأنَّ أحدَهما طلبُ فعْلٍ والآخرَ طلبُ ترْكٍ، فكانا بين كمالِ الاتّصالِ والانقطاعِ المقتضِي للعطفِ بخلافِ ما قبْلَهما[3].

سِرُّ التأخير لهاتين الصفتين: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

تربيّةُ الأفرادِ وإصْلاحُهم طريقٌ إلى تربيةِ المجتَمعِ

من خَصَائصِ المنهجِ القُرآنيِّ تربيّةُ الأفرادِ في الظّاهرِ والباطنِ عن طريقِ تربيةِ القُلوبِ والجوارحِ، وهذا ما تكفّلَتْ به الأوصافُ السّابقةُ في العملِ على إيجادِ الفرْدِ الّذي يُراقبُ نفسَه ويُقوّمُها من خلالِ وجودِ نفْسٍ لوّامةٍ تلومُه على فعْلِ المعصيّةِ وتدعُوهُ إلى أن يُزيلَ دَنسَها من قلبِه ومن جوارحِه، وهذا ظاهرٌ في وصفِ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾، ولم يقفِ الأمرُ عند ذلك بل تدعُوه إلى عبادةِ اللّه بإخلاصٍ حتى يَشعرَ العبدُ بأنّ اللّه يراهُ، وهذا ظاهرٌ من وصْفِ ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾، فكأنَّ وصْفَ التّوبةِ والعبادةِ يعملان على تخليةِ الفردِ منَ المعاصِي

(1) طنطاويّ، الوسيط:/411، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 476، والخفاجيّ، حاشية الشّهاب: 4/645.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/30.

وتحلِيتِه بالطّاعةِ، وتظهرُ هذه التّحليةُ في صيامِه وصلاتِه من قولِه: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، فبعْدَ هذه التّربيةِ السُّلوكيّةِ للفردِ يهدفُ القرآنُ الكريمُ إلى تطهيرِ المجتمعِ منَ الرّذائلِ والدّعوةِ إلى نشْرِ الفضائلِ، وذلك من خلالِ قولِه تعالى: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، لأنَّ المجتمَعَ الفاضلَ هو ظلٌّ لكلِّ خُلُقٍ نبيلٍ تنمُو فيه الفضيلةُ وتقوَى غصونُها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميّةِ دونَ الفعليّةِ في الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عنِ المنكرِ:

الأمـرُ بالمعـروفِ والنّهيُ عنِ المنكرِ خُلُقٌ ثابتٌ لأهلِ الإيمانِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسميّةِ الّتي تدلُّ على الثّبوتِ دونَ الفعليّةِ الّتي تدلُّ على تجدّدِ الأفعالِ وحُدوثِها، لأنَّ السّياقَ هنا جاءَ عنِ المؤمنين الّذين بذلُوا أنفسَهم وأموالَهم في سبيلِ اللّه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التّوبة: 111]، وهذا دليلٌ على أنّهم حقّقوا هذه الفضيلةَ في أنفسِهم قبل أن تَتعدَّى إلى غيرِهم، لذلك كان التَّعبيرُ بالاسميّة من باب الإعلام بالوصْفيّةِ الّتي تحقّقتْ وصارتْ عُنوانًا لهم، وفيه دلالةٌ على أنّهم نالُوا استحقاقَ وصْفِ الإيمانِ والبشارةِ بالجنّةِ بهذه الصّفاتِ السّابقِ ذِكْرُها، ومنها الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكرِ، وفيه دلالةٌ على كمالِ القيامِ بفضيلةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ، لأنَّ الوصْفَ إذا جاءَ بالاسميّةِ يدلُّ على الكمالِ فيه.

سِرُّ البدْءِ بالأمرِ بالمعروفِ: ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

رسـالـةُ أهـلِ الإيـمـانِ في المجتمَعِ إيجابيّةٌ

النَّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريمِ في هذه القضيّةِ مع تعدُّدِ الأساليبِ واختلافِ الصّيَغِ يجدُ أنّها متّفقةٌ على الأمرِ بالمعروفِ، ففي سورةِ آلِ عمرانَ يجدُ ذلك واضحًا في قولِه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، وفي سورةِ الأعرافِ في حديثِ القُرآنِ عن أوصَافِ الرَّسولِ يجدُ قولَه تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: 157] وكمَا هنا في

هذه الآيةِ من سورةِ التّوبةِ ونحوِ ذلك، لأنَّ الأمرَ بالمعروفِ هو الأصلُ ولعُمومِ معناهُ الّذي يقتضِي النَّهيَ عنِ المنكرِ، لأنَّ النّهيَ عنِ المنكرِ جزءٌ منَ الأمرِ بالمعروفِ، ولأنّه يأتي في مقامِ المدْحِ دائمًا، ففي جانبِ مدْحِ الأمّةِ بالخَيريّةِ بدأَ بالأمرِ بالمعروف، وفي مقامِ رسولِ اللّه ﷺ بدأَ بالأمرِ بالمعروف، وفي مَدْحِ المؤمنين الكاملِين أيضًا بدأَ كذلك.

دلالةُ (أل) في: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ و﴿ٱلْمُنكَرِ﴾:

دلّتْ (أل) في لفظَيِ المعروفِ والمنكرِ على الاستغراقِ لجميعِ أنواعِ المعروفِ ولجميعِ أنواعِ المنكرِ، وفي هذا دلالةٌ على حرصِ المؤمنين على الأمرِ بكلِّ خيرٍ صغيرًا كان أو كبيرًا، والنّهيِ عن كلِّ منكرٍ صغيرًا كان أو كبيرًا، وذلك لحراسةِ المجتمعِ عنايةً ورعايةً.

لحراسةِ المجتمعِ لا بدَّ منَ الوفاءِ بهذه الصّفةِ على الوجهِ الأكمَلِ

بلاغةُ الطّباقِ في: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

النَّاظرُ في هذه الجملةِ منَ الآيةِ يجدُ الطّباقَ فيها ظاهرًا بين الأمرِ والنّهيِ، والمعروفِ والمنكرِ، والغرضُ منه إفادةُ العُمومِ والشُّمولِ في أداءِ هذه الفَريضةِ.

مسؤوليّةُ جميعِ المؤمنين في تحقيقِ هذه الصِّفَةِ

دلالةُ حذفِ متعلّقِ ﴿ٱلْآمِرُونَ﴾ ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾:

حُذفَ المتعلّقُ، لأنّه معلومٌ منَ السّياقِ، والقرينةُ عليه ظاهرةٌ، لأنَّ أصْلَ الكلامِ (الآمرون النّاسَ والنّاهون لهم)، فلو جاءَ التّعبيرُ هكذا لم يكُنْ بهذه البلاغةِ الّتي عبّرَ بها القرآنُ، لأنّه يُفوّتُ قيمةَ الإيجازِ، وفيه إشارةٌ إلى قصْدِ العُمومِ.

الحذف للإيجاز والعموم

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بالأمرِ والنّهي:

آثرَ التّعبيرَ بصيغتَيِ الأمرِ والنَّهيِ للدّلالةِ على حتميّةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ ليستقيمَ المجتمعُ للدّلالةِ على أهميّةِ هذه الفريضةِ في حياةِ الأمّةِ، لأنّها من عظائمِ الأمورِ الّتي لا يقومُ عليها إلّا العلماءُ الّذين يَعرفونَ حُدودَ الأوامرِ ومقتضَى النّواهي، لأنَّ مَنْ لا يعلَمُها يقعُ في حرجٍ ويُوقعُ المجتمعَ في خطرٍ.

الأمـر والنَّـهي واجـب على كلٍّ مسلم، كلّ على حسـب علمه وقدرته

سِرُّ ختامِ هذه الصّفاتِ بالحفْظِ لحُدودِ الله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

الجمعُ بين رعايةِ أعمالِ الجوارحِ وأحوالِ القلوبِ

خُتمتْ هذه الصّفاتُ بصِفةِ الحفْظِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، لأنّها تناولت كلَّ هذه الصّفاتِ على سبيلِ الشُّمولِ والإحاطةِ، لأنَّ التَّوبةَ والعبادةَ والاشتغالَ بتحميدِ الله، والسِّياحةَ لطلبِ الفضائلِ، والرُّكوعَ والسُّجودَ والأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عنِ المنكر، أمورٌ لا ينفكُّ المكلَّفُ عنها في أغلبِ أوقاتِه، فلهذا ذَكَرَها الله تعالى أوّلاً على سبيلِ التَّفصيلِ، وأمَّا أمرُ الحُدودِ الّذي يُطلقُ في عُرفِ الفقهاءِ على كلِّ عقوبةٍ ذكرَها الله تعالى للجرائم الّتي تُعدُّ اعتداءً على حقِّ الله تعالى أو حقِّ المجتمعِ، فلا يلزمُ المكلَّفَ التّعاملُ معها أو التّلبُّسُ بها مثلَ معرفةِ أحكامِ الجنايات[1]، وفيه إشارةٌ إلى التّفريقِ بين هذه الصّفاتِ، فالثّمانيةُ الأُولى أعمالُ الجوارحِ، وأمّا الصِّفةُ التّاسعةُ فهي رعايةُ أحوالِ القلوبِ، بلِ البحثُ عنها، والمبالغةُ في الكشْفِ عن حقائقِها، لأنّ أعمالَ الجوارحِ إنّما تُرادُ لأجْلِ تحصيلِ أعمالِ القلوب[2].

سِرُّ العطْفِ في: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

الإجمالُ بعدَ التّفصيلِ

سِرُّ العطْفِ التّنبيهُ على أنَّ ما قبْلَه مُفَصِّلُ الفضائلِ، وهذا مُجملُها، لأنَّه شاملٌ لما قبْله وغيرِه، ومثلُه يُؤْتَى به معطوفًا، نحو: زيدٌ وعمرو وسائرُ قبيلتِهما كُرَمَاء، فلمُغايرتِه لما قبْله، بالإجمال والتّفصيلِ، والعمومِ، والخصوصِ، عُطفَ عليه، وقيل: بقوَّة الجامعِ بالتّلازمِ، لأنَّ مَنْ حَصَّلَ الأوصافَ السَّابقةَ، فقد حَفِظَ حُدودَ الله[3].

سِرُّ وصْفِهم بالحفظِ لحُدودِ الله:

المبالغةُ في الوصْفِ بطاعةِ اللهِ والقيامِ بأوامرِه

اختارَ القرآنُ الكريمُ وصْفَهم بالحفْظِ في قولِه تعالى:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/152.

(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/743.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/30، والقاسميّ، تفسير القاسميّ: 5/510، ومحمد رضا، تفسير المنار: 11/51.

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، لأنَّ الحفْظَ صِفةٌ جامِعةٌ للعملِ بالتَّكاليفِ الشَّرعيّةِ عند توجُّهِها ويَلزمُ منه الإتيانُ بالتَّكاليفِ على أتمِّ ما يكونُ منَ المبالغةِ في طاعةِ اللّه والقيامِ بأوامِرِه والانتهاءِ عن زواجِرِه، وذلك لأنَّ للّه تعالى حُدودًا في أوامرِه وزواجرِه وما ندبَ إليه ورَغَّبَ فيه أو أباحَهُ وما خيَّرَ فيه وما هو الأَولى في تحرِّي موافقةِ أمرِ اللّه، وكلُّ هذه حُدودُ اللّه، فوصَفَ تعالى هؤلاء القومَ بهذا الوصْفِ، ومَنْ كان كذلك فقد أدَّى جميعَ فرائضِه وقامَ بسائرِ ما أرادَه منه[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحفْظِ بين الحقيقةِ والمجازِ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

يُستعملُ الحفْظُ على الحقيقةِ ويكونُ معناه: توخِّيَ بقاءِ الشَّيءِ في المكانِ الّذي يُرادُ كَوْنُه فيه رغبةُ صاحبِه في بقائِه ورعايتِه عن أنْ يَضيعَ، ويُطلقُ مجازًا شائعًا على مُلازمةِ العملِ بما يُؤمَرُ به على نحوِ ما أُمِرَ به وهو المرادُ هُنا، أي: والحافظُون لِمَا عَيَّنَ اللّه لهم، أي: غَيْرَ مُضيِّعين لشيءٍ من حُدودِ اللّه[2].

الشَّأْنُ في المؤمنِ أن يكونَ حافِظًا لحُدودِ الله غيرَ مُضيِّعٍ لها

سِرُّ خِتامِ صفاتِ المؤمنين بـ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

خَتمَ اللّه تعالى هذه الأوصَافَ بهذه الصّفةِ ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ﴾ دون (القائمُون)، لأنّه سبقَ ذِكْرُ ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهم في واقعِ الأمرِ القائمُون على حُدودِ اللّه، فلَو عُبِّر بها لكان تكرارًا في المعنى ولم يُؤَدِّ المرادَ منَ الحفظِ، وهو رِعايةُ الحُدودِ والعملُ على بقائِها بعيدًا عنِ التّحريفِ والتّبديلِ، ولأنّ المحافظةَ على الشَّيءِ يَلزمُ منها الإقامةُ عليه.

تجنّبًا للتّكرارِ ولعُمومِ لفْظِ الحفْظِ

وفيه دلالةٌ على أنَّ الحفْظَ لا يكونُ إلّا للشّيءِ النّفيسِ الغالي، وفي هذا إشارةٌ إلَى عظَمةِ هذه الحدودِ وعُلوِّ قَدْرِها.

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 4/368.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/42.

والتَّعبيرُ بالمحافظةِ يدلُّ على المداومةِ والاستمرارِ بمغالبةِ النّفسِ دواعيَ التّفريطِ في الحدودِ، ولذلك كان الغرَضُ من ختامِ الأوصافِ بها الدَّوامَ على تلك الحُدودِ بترْكِ جميعِ القيودِ الّتي تمنعُ الحِفاظَ عليهَا.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ التَّكاليفِ بالحُدودِ:

لفظُ الحُدودِ يعمُّ كلَّ أنواعِ العباداتِ والمعاملاتِ

عبّرتِ الآيةُ عنِ التّكاليفِ بالحُدودِ، لأنّها تشملُ العباداتِ والمعامَلاتِ كما في آياتِ سُورةِ البقرةِ، وأيضًا تشملُ أحكامَ المواريثِ كما في سُورةِ النِّساءِ في قولِه تعالى تعقيبًا على أحكامِ الميراثِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، وكلُّ هذه الأحكامِ والتّكاليفِ حدَّ لها الشَّرعُ حدًّا فاصلًا بين الحلالِ والحرامِ، ومعنى حفْظِه: حمايتُه وصَونُه منَ التَّحريفِ والتَّغييرِ، ومَنْ وقعَ في ذلك مُتعمِّدًا عاقبَه الشَّرعُ، لأنّه اعتدَى على حقِّ اللّه تعالى وحقِّ المجتمعِ، لذلك سمَّاها ربُّنا حُدودًا، لأنَّ تَجاوُزَها يُخرجُ فاعلَها منَ الحِلِّ إلى المنعِ، لأنَّ أصْلَ الحدِّ في اللّغةِ المنعُ، ومنه حَدُّ الدّارِ، لأنّه يمنعُ الغيْرَ من دخولِها، ولذلك سُمِّيت المعاصِي حُدودًا، لأنَّه يُمنع تجاوُزُها، ولأنَّها تمنعُ أصحابَها منَ العَودِ إلى أمثالِها"[1].

نُكتةُ إضافةِ الحُدودِ: ﴿لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ تعظيمِ هذه الحُدودِ والمُبالغةِ في عَدَمِ التَّلَبُّس بها

إضافةُ الحُدودِ إلى اللّه تعالى في هذه الآية - وحيثُ ذُكرتْ - لتدلَّ على تعْظيمِها والمبالغةِ في عدمِ التّلبُّس بها، ولتعظيمِ هذه الحُدودِ أضافَها اللّه تعالى إليه.

سِرُّ حذْفِ مُتعلّقاتِ هذه الأوصَافِ:

كونُ المُتَعَلَّق معلومًا منَ السِّياقِ، لأنَّ الصِّفاتِ صِفاتُ مَدْحٍ للمؤمنين

لم يَذْكُرْ سبحانه في الآية لهذه الأوصافِ مُتَعَلَّقًا، فلم يقُلْ: التَّائبون من كذا، لفهْمِ ذلك منَ المقامِ، لأنَّ المقامَ في مدْحِ المؤمنين الصَّادقين الّذين أخلَصُوا نفوسَهم للّه تعالى، فصارُوا مُلتزمين طاعتَه في كُلِّ أقوالِهم وأعمالِهم[2].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/337.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/411.

دلالة الواو: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

البشارةُ منَ الله تعالى لمَنْ أحسَنَ العمَلَ

الواوُ في قولِه سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفةٌ، لأنّها عطفتْ هذه الجملةَ على قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التّوبة: 111] عطفَ إنشاءٍ على خبرٍ، وممَّا حَسَّنهُ أنَّ المقصودَ منَ الخبر المعطوفِ عليه هو الأمرُ بالعملِ به، والمقصودُ منَ الأمر بتبشيرهم إبلاغُهم، فكان كِلْتا الجُملتيْن مُرادًا منها معنيان: خَبَريٌّ وإنشائيٌّ[1].

سِرُّ خِتامِ الآية بالبِشارةِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مع سبْقِ ذكْرِها:

التّأكيدُ على البِشارةِ وأنّها لا تَشملُ إلّا أصحابَ هذه الصّفاتِ

لمَّا ذكرَ اللّه تعالى هذه الصِّفاتِ التِّسعةَ وقال بعدها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للدّلالة على أنهم هُمُ المقصودُون في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التّوبة: 111]، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ البِشارةَ المذكورةَ في قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ [التّوبة: 111] لم تتناولْ إلا المؤمنين الموصُوفين بهذه الصِّفاتِ[2].

دلالةُ الأمرِ: ﴿وَبَشِّرِ﴾:

بيانُ عمومِ البِشارةِ للمؤمنين مع تفاوُتِ درجاتِهم

قولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو لفظٌ عامٌّ، أمرَ اللّه تعالى نَبيَّه ﷺ أن يُبَشِّر أمَّته جميعًا بالخيرِ منَ اللّه، فكأنَّه وعدَ الجنَّةَ جميعَ المؤمنين، مع تفاوُتِ درجاتِهم كقولِه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النّساء: 95][3]، فالبِشارةُ مُتناولةٌ كلَّ مؤمن، وأمَّا مِقدارُها وصفتُها فإنَّها بحسبِ حالِ المؤمنين، وإيمانِهم، قُوةً وضَعفًا[4]، وقيل: بل هذه الألفاظُ خاصَّةٌ لمَنْ لم يَغْزُ، أي: لمَّا تقدَّم في الآية وَعْدُ المجاهدين وفَضْلُهم، أُمرَ ﷺ أن يُبَشِّرَ سائرَ المؤمنين ممَّن لم يغْزُ[5]، فإنَّ اللّه سبحانه ذكرَ أوصافَ هؤلاءِ الكُبراءِ من أهلِ المقاماتِ والدَّرجاتِ،

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/88، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/43.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/152.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/218.
(4) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 402.
(5) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/218.

وما ذكرَ منَ البِشارة هُناك، كأنَّ ذلك يقتضِي حُزنَ المؤمنين الّذين هم في أدنى الدّرجات من درجاتِهم، فبشّرهم بهذه البِشارةِ تفضُّلًا كما أثابَ المجاهدين، وعاملَهم بالبيعِ والشّراءِ[1].

بلاغةُ حذْفِ مُتعلَّقِ البُشْرَى:

بيانُ عِظَمِ المُبَشَّرِ به وعُمومِ نفْعِه لصاحبِه في الدّنيَا والآخرةِ

لم يَذْكُر سبحانه المُبَشَّر به في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للتَّعظيم وللإشارة إلى أنَّه أمرٌ جليلٌ لا يُحيط به الوصف، ولا تَحُدُّه العبارة[2]، فكأنَّه قيل: بَشِّرْهم بما لا تُدركه الأفهام ولا يُحيط الكلام ولم تسمع به الآذان[3]، فلم يذكر ما يُبَشِّر لهم به، ليعمَّ جميع ما رُتِّب على الإيمان، من ثواب الدُّنيا، والدِّين والآخرة[4].

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمَارِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الاعتناءُ بشأْنِ المؤمنين وبيانُ دافعِهم الإيمانيِّ إلى العمَلِ

قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وضعُ المُؤمنين موضِعَ ضميرِ الموصوفينَ بتلك الفضائلِ، للتَّنبيهِ على أنَّ مِلاكَ الأمْرِ هو الإيمانُ، وأنَّ المؤمِنَ الكاملَ مَن كان كذلك[5]، فأُظهرَ في مقامِ الإضمارِ، اعتناءً بهم، وتشريفًا لِقَدْرِهم[6].

دلالةُ ذكْرِ البِشارةِ في الآيتيْن مع اختلافِ المُبَشَّرِ فيهمَا:

إظهارُ مَزيّةِ أَهْلِ الإيمان والاعتناءِ بشأْنِهم

النّاظرُ في الآيتَيْن يجدُ ذِكْرَ البِشارةِ فيهما، تارةً منَ الخالقِ كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التّوبة: 111]، وتارةً على لسان أكمَلِ الخلائقِ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي جَعْلِ الأُولَى مِنَ اللّهِ أعظمُ تَرغيبٍ في الجهادِ، وأعلى حَثٍّ على خَوضِ غَمَراتِ الجِلادِ[7]، وفي جعل الثّانيةِ على

(1) البقليّ، عرائس البيان: 2/48.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510، طنطاويّ، الوسيط: 6/411.
(3) المظهريّ، التفسير المظهريّ: 4/305، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/654.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرحّمن، ص: 402.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/175، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/107.
(6) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/74.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/29.

لسانِ رسولِ اللّه أعظَمُ مَزيَّةٍ للمُؤمنينَ، والإشارةُ إلى أنَّ هذه المائدةَ الإيمانيّةَ لا يجلِسُ عليها إلا الرَّاسخُون في الإيمانِ الّذين تحقّقتْ فيهمُ الصّفاتُ السّابقةُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العبادةُ والطَّاعةُ:

الطَّاعَةُ مُطلَقُ الامتثالِ، والعبادةُ حقُّ اللهِ وحدَه

الطَّاعَةُ هيَ الفِعْل الوَاقِعُ عَلى حَسَبِ مَا أَرَادَهُ المُرِيدُ مَتى كَانَ المُرِيدُ أَعلَى رُتْبَةً مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِك وَتَكُونُ لِلْخالِقِ والمَخْلوقِ[1]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النّساء: 59]، والعِبَادَةُ هيَ تَعْظِيمُ اللّهِ تَعالَى بأَمْرِه، بِشَرْطِ النِّيَّةِ ومَعْرِفَةِ المَعْبودِ ولا تَكونُ إِلَّا لِلْخالِقِ، قال تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذّاريات: 56]، فالعِبادَةُ حَقُّ اللّهِ وَحْدَهُ، أَمَّا الطَّاعَةُ فَهِيَ مُطْلَقُ امْتِثَال الأَمْرِ وَالنَّهْيِ فالطَّاعَةُ أَمْرُها واسِعٌ[2].

الحِفْظُ والرِّعايَةُ:

الرِّعايةُ فعلُ أسبابِ الحِفْظِ وهي سابقةٌ له

الحِفْظُ صَرْفُ المكارهِ عنِ الشَّيءِ لئلّا يَهْلَكَ، والرِّعايةُ فِعْلُ السَّببِ الّذي يَصرفُ المكارهَ عنه، فالرِّعايةُ سابقةٌ للحفْظِ، ومن ثَمَّ يُقالُ: فلانٌ يرعَى العهودَ بينه وبين فلانٍ، أي: يحفظُ الأسبابَ الّتي تبقَى معها تلك العهودُ، ومنه: راعِي المواشِي؛ لتفقُّدِه أُمورَها ونفْيِ الأسبابِ الّتي يُخشَى عليها الضَّياعُ منها، فكلُّ حافظٍ راعٍ، فالحفْظُ أعمُّ والرِّعايةُ أسبقُ[3]، وقد يُطلقُ كلٌّ منهما على الآخر في حقِّ اللّه، فيُقالُ: في رعاية اللّه تعالى؛ أي: في حفْظِه[4].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 221.
(2) زكريّا الأنصاريّ، الحدود الأنيقة، ص: 77.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 205.
(4) الحميريُّ، شمس العلوم: 04/2547.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»